تقديم

ماذا لو أطلقنا العنان لخيالنا " لعالم بلا إسلام "؟ يبدو الأمر شبه مستحيل، إذ تسيطر مشاهد الإسلام والإحالات إليه على عناوين الأخبار، وبرامج الفضائيات، وشاشات الكمبيوتر، وحلقات الجدل السياسى. كذلك، نجد أنفسنا فى غمار مصطلحات كالجهاد، والفتوى، والمدرسة، وطالبان، والوهابية، والملالى، والشهيد، والمجاهدين، والراديكاليين الإسلاميين. ومن الجلى أن الإسلام يحتل موقع الصدارة فى الصراع الأمريكى ضد الإرهاب وكذا الضلوع فى العديد من الحروب التى شنت وفق شعار " الحرب الشاملة ضد الإرهاب ".

obeikandl.com

وحقيقة الأمر، فإن الإسلام يقدم طرحا ومحكا تحليليا جاهزا ويسيرا لجمهرة من القضايا بالشرق الأوسط، يمكن من خلاله تلمس الحقيقة فى عالم اليوم المأزوم. وبالإحالة إلى الإسلام، يمكننا أن نخلص إلى كون الصراع يدور بين قطبين: "المعتقدات الغربية"، و"العالم الإسلامى". ووفقا لبعض " المحافظين الجدد "، فإن "الإسلام الفاشستى"، فى واقع الأمر، يمثل فى الوقت الراهن العدو اللدود فى حاضر تلوح فى آفاقه نذر حرب كونية رابعة، أو " حرب ممتدة الأجل " – صراع أيديولوجى هائل يرتكز على الدين ويغفل العديد من العوامل الأخرى التى أسهمت بجلاء فى تأجيج الصراع ما بين الشرق والغرب وفاقمت من مظاهر المواجهة بينهما.

وفى هذا الكتاب، سيناقش الطرح من الجهة المعاكسة، أو بالأحرى من وجهة

نظر مغايرة. فلو لم يكن هناك إسلام، ولو لم يبعث النبى محمد فى صحراء العرب، ولو لم يمتد الإسلام ليشمل أجزاء شاسعة من الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا ... أكان للعلاقة بين الغرب والشرق الأوسط أن تتخذ نهجا مغايرا ومنحى مختلفا عما نشهده اليوم؟! كلا، فالرأى عندى أن الأمر لم يكن ليختلف كثيرا عما نشهد حاليا.

وبما أن هذا الطرح يبدو للوهلة الأولى مخالفا للحدس الصائب أو البداهة، يمكننا تقديم إشارات وشواهد جلية تثبت وجود قلاقل وثورات جيوبوليتيكية غائرة تضرب بأطنابها فى علاقات الشرق الأوسط بالغرب، إذ بتتبع جذورها نلقاها ضاربة فى التاريخ لما قبل انبعاث الإسلام ذاته، بل يتعدى الأمر ذلك ليسبق ظهور المسيحية أيضا. وقد أسهمت كوكبة من العوامل المتباينة الأخرى بقوة فى نشأة العلاقات بين الشرق والغرب على امتداد ردح طويل من الزمان لعل أهمها، المصالح الاقتصادية والجيوبوليتيكية، وصراعات القوى والنفوذ فيما بين الممالك الإقليمية،

obeikandl.com

فضلا عن الصراعات الإثنية والنزعات القومية، بل تعدى الأمر ذلك ليصل إلى صراعات مستعرة فى نطاق المعسكر المسيحى ذاته – وتعطى الشواهد السابقة جميعها إشارات بالغة الدلالة على التنافس المحموم بين الشرق والغرب، والمواجهات فيما بين الطرفين والتى تكاد تكون واهية الصلة " بالإسلام "، إن لم تكن منبتة عنه تماما.

وبسبر الأغوار شيئا فشيئا، فى تتبعنا للعلاقة بين الغرب والشرق الأوسط ومجريات أحداثها عبر الزمن، نجدها تبوح بأسرار وتفسيرات بديلة دامغة لجذور الصراعات التى يشهدها عالم اليوم، والتى غالبا ما نعزوها، بقدر بالغ من التبسيط، إلى "الإسلام". وفى هذا الإطار، لا يتطلب الأمر دراية عميقة أو معرفة دقيقة بالشرق الأوسط لإدراك كون العلاقات الحالية التى تربط الغرب – وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية – بالشرق الأوسط، على قدر من الانحراف ينذر بالخطر. فماذا يجرى الآن على الساحة؟ وما السبب فى كون الشرق الأوسط على هيئته الحالية وطريقته تلك؟ وماذا عن الغرب ... وماذا عن طبيعة وضعه ونهجه الحاليين؟ ألم يكن ممكنا بلا إسلام، أن نجتنب الكثير من الصراعات القائمة حاليا والتى لم تكن لتنشأ بالأساس؟ ألم يكن من الممكن أن ينعم الشرق الأوسط بقدر أكبر من السلام؟ وعلام كانت ستبدو طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، ألم تكن لتختلف عما نشهده الآن؟ فبدون الإسلام، ألم يكن من المؤكد أن يشهد النظام العالمى منحى آخر ووجها مغايرا لما هو عليه اليوم، أم ماذا؟ ... يهدف الكتاب الذى بين يدى القارئ الآن إلى تقديم بعض الطروحات والإجابات البديلة عن هذه الأسئلة.

لم يبد الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، اهتماما جادا أو مستداما بالشرق الأوسط حتى الخمسين سنة الأخيرة. فنحن نركن إلى الجهل بتاريخ التدخل الغربى فى المنطقة على امتداد قرون عديدة، بله على امتداد ألفية بأسرها. كما يبدو اهتمامنا سطحيا بانتقادات الشرق الأوسط للسياسات الغربية الخاصة بالنفط والأموال والتدخلات السياسية والانقلابات المباركة من قبل الغرب المؤيد

والداعم لها، وكذا الدعم الغربى لدكتاتوريى الشرق الموالين له، والدعم الأمريكى غير المشروط وغير المحدود لإسرائيل فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية، والذى يجد جذوره فى سحق الأوروبيين لليهود وإبادتهم والتنكيل بهم، لا فى " الإسلام " أو ما يرتبط به. كذلك، فقد عملت القوى الأوروبية على تصدير صراعاتها المحلية وخلافاتها البينية وتوجيهها نحو حربين كونيتين جرت رحاهما، فى جانب، على أراض شرق أوسطية، كما كانت الحال فيما ارتبط بالحرب الباردة التى أعقبتهما. ويبرز ذلك بجلاء وجود العديد من العوامل السببية المتفاعلة التى تنطوى، وفق أدنى تقدير، على قوة تفسيرية للقلاقل الراهنة تماثل ما قد ينطوى عليه " الإسلام "، إن لم تفقه فى ذلك.

ولا ينطوى ما سبق على ضرب من " اللوم الموجه للغرب "كما قد يسرع بعض القراء إلى الاستنتاج. إذ أنحو فى هذا الصدد إلى الزعم بوجود عوامل جيوبوليتيكية عميقة الأثر أسهمت فى خلق وإذكاء مناخ عديدة للمواجهة والصدام فيما بين الشرق والغرب، سبقت نشأة الإسلام ذاته، واستمرت بالتوازى معه وفى ظلاله ... مناخ قد تكون متضمنة وكامنة فى الحقائق والحتميات الإقليمية والإطار الجيوبوليتيكى لأى من البلدان المنضوية تحت لواء هذه المنطقة أو تلك، بغض النظر عن قضية " الدين " وما قد تمثله.

على أنه يكون من الحماقة، بطبيعة الحال، افتراض غياب أى إسهام للإسلام فى صبغ الصراع بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى والمواجهة بينهما. إذ يمثل الإسلام حضارة ناجزة وعميقة الغور كان لها أثر عظيم فيما يخص الشرق الأوسط وما عداه. بيد أنه، ووفق اصطلاحات العلاقة فيما بين الشرق والغرب، أجدنى مدفوعا إلى القول بأن الإسلام كان بالأساس أقرب إلى كونه إشارة إلى صنوف وضروب مغايرة أشد عمقا وأبعد أثرا للتنافس والمواجهات التى تجرى فيما بين المعسكرين.

ويحدونى الأمل أن يفضى الطرح المقدم بين دفتى الكتاب إلى أن يعيد القارئ التفكير فيما يخص طبيعة الصراع بين الشرق والغرب، والكيفية التى ينظر بها الأمريكيون، بصفة خاصة، إلى سياساتهم الخارجية. على أن عملية اختبار الذات تلك تكون عسيرة على القوى العظمى والتى تعانى صنفا من العزلة وقصر النظر ومحدودية الأفق، إذ تتطلب حيازة درجات عالية من القوة والسلطة التمتع بالمنعة والثقة واليقين، وكذا القدرة على تجاهل المواقف التى تجدها البلدان الأقل شأنا خطيرة ومهددة لها، ومن ثم لا يمكن معها ارتكاب أية أخطاء. فالسياسة الدولية أشبه ما تكون بشريعة الغاب، إذ يكون على الحيوانات الأصغر والأضعف أن تتمتع بدرجات عالية من حسن التصرف، ورهافة الحس، ورشاقة وقع الخطى لضمان استمرارية وجودها بمنأى عن الأخطار ... أما الحيوانات الأكبر والأقوى، كالأفيال، فليست بحاجة إلى التنبه الدائم للعوامل المحيطة، إذ يمكنها التصرف كيفما تشاء، وعلى الآخرين إفساح الطريق أمامها.

كذلك، ينجم عن امتلاك النفوذ والسلطة قدر من الكبر والغطرسة يكون منبعه الاعتقاد واليقين بامتلاك زمام الأمور، والإيمان بأننا أصحاب المسئولية والقيادة، والثقة بالقدرة على الإقناع والترغيب أو الترهيب بيسر ... أو هكذا يتراءى لنا الأمر. وتصديقا لما سبق، جاءت إجابة أحد كبار المسئولين خلال حكم الرئيس بوش عن سؤال بشأن ما يحيط الحروب بالشرق الأوسط من تداعيات، إذ ذكر بثقة بالغة :"نحن نخلق حقائقنا بأيدينا ". ولعل مجريات الأحداث خلال العقد المنصرم أبانت بجلاء، وللأسف، صدق مقولته تلك.

وتكمن المشكلة فى المنظور الذى يتم توظيفه من قبلنا. إذ تركن واشنطن، ربما كما ركن العديد من القوى العظمى فى الماضى، إلى توظيف ما أنحو إلى نعته بنظرية " الحبل بلا دنس " فيما يخص الكوارث الخارجية. إذ يعنى ذلك إيماننا بأن وجودنا وتدخلنا فى تلك الكوارث ما هو إلا امتداد لقيامنا بمهامنا وإدارة شئوننا الخاصة، وسعينا إلى جعل العالم أكثر عدلا وأفضل حالا، لنفاجئ يوما بسيل

متراكم من التحديات العفوية الصادمة التى لابد وأن نقوم حيالها بما يلزم. كذلك، فلا يوجد أدنى اعتبار لاحتمالية أن تكون سياسات الولايات المتحدة ذاتها قد أسهمت، على أدنى تقدير، فى ذلك الدفق من الوقائع المتواترة والتى تفضى إحداها إلى الأخرى. ويمثل ذلك مفارقة وتناقضا كبيرين : إذ كيف لأمريكا أن تفتخر وتتباهى بكونها القوة العظمى الأوحد، بما لها مما يربو على سبعمائة قاعدة عسكرية خارج حدودها، وبما للبنتاغون من ثقل ومكانة وهيمنة دولية، هذا من جانب... ومن جانب آخر تتناسى وتتغافل عن قوتها وثقل هيبتها وعظم دورها، إن سلبا أو إيجابا، باعتبارها القوة المهيمنة الوحيدة التى ترسم مسار الأحداث العالمية؟ إذ لا يقتصر الأثر السلبى لتلك المخادعة على صانعى السياسات فحسب، بل يتعداه إلى مراكز "مستجمعات الأفكار" think tanks التى تعج بها واشنطن. ففيما قد يكون، على خلاف ذلك، عادة تحليلاً متميزاً للوضع الخارجى، يكون محور كل دراسة، على نحو ثابت، البلد "الآخر"، أو ثقافة "الآخر"، أو النوايا السيئة للاعبين "الآخرين"، ويكون أثر رؤى الولايات المتحدة الأمريكية وأنشطتها غائبا عن تلك المعادلات. ومن الصعوبة بمكان تعيين تحليلات جادة ضمن الإصدارات الاعتيادية أو مخرجات "مستجمعات الأفكار"، تحدد دور الولايات المتحدة ذاتها فى خلق مشكلات أو أزمات راهنة، من خلال سياسات الاستبعاد والإقصاء أو تخويل السلطات. على أننا لا نتحدث هنا عن "إلقاء اللوم"، وإنما نبرز الحقيقة الدامغة والمنطقية والتى مفادها أن ما تقوم به القوة العظمى الأوحد فى العالم من أفعال وتصرفات له مردود عظيم ومستتبعات هائلة بشأن ما ينجلى من مخرجات السياسة الدولية تباعا، وهو الأمر الذى يحتاج إلى الدراسة والتحليل.

كذلك، ينطوى الأمر على مفارقة إضافية : كيف لدولة كالولايات المتحدة الأمريكية، تفصح عن مخزون هائل ودفق عميم من "الوطنية" ووجود دائم فى شتى المواقف، أن تغض الطرف عن وجود معان "للقومية" و"الوطنية" فى بلدان أخرى؟ لم يحالف التوفيق واشنطن إبان الحرب الباردة فى إدراك الدوافع والمشاعر الخاصة

بدول "عدم الانحياز"، إذ قامت واشنطن بتجاهل، بل ويكبت الطموحات الوطنية لتلك الدول، والتى اعتبرتها غير ملائمة، من وجهة نظرها، مما دفع، فى النهاية، بأعداد كبيرة منها إلى الانحياز إلى الاتحاد السوفييتى والتعاطف معه !! ولقد كان هذا ضربا من "العمى الاستراتيجى" الذى ذهب إلى اعتبار مصالح البلدان الأخرى وتفضيلاتها أمرا بحاجة إلى التطويق أو العزل. والثابت أننا قد تجاهلنا النزعات القومية وقضايا الهوية فى الشرق الأوسط وغَضَضْنا الطرف عنها، وقمنا بتجميعها برمتها فى سلة "الإسلام".

فحين نكره عدوا أجنبيا ولا نسيغه، ننحو إلى الحط من قدره وتشويه سمعته بألفاظ حادة للغاية. ويبدو أن أحد المظاهر غير المستحبة للديمقراطية هو أنها تتطلب اعتبار العدو شيطانا مريدا، إذا ما أريد للأمة وللرأى العام أن يتآزرا معا بما يكفى لبذل كل غال ونفيس فيما عساه أن يكون من حروب. ويكون المطلوب أن يتم تبسيط الرسالة التى تسوغ أو تبرر خوضنا لحرب ما أو ضلوعنا بمواجهة ما تبسيطا لا تتجاوز صيغته كلمة أو كلمتين.

وفى عالم اليوم، فإن "الإسلام" هو تلك الكلمة من وجهة النظر الأمريكية، هو القاسم المشترك والسبب الرئيسى للكثير من المشكلات التى تواجهنا فى العالم الإسلامى. ففيما مضى، خضنا غمار معارك شتى ضد "الفوضويين"، و"النازيين"، و"الفاشست"، و"الشيوعيين"، واليوم ... فإنه "الإسلام الراديكالى"، ذلك المصطلح الذى يطلق لنعت ظاهرة معقدة ومتشعبة تتخذ أشكالا وأوزانا عدة وتتطلب قاعدة عريضة من الاستجابات وردود الأفعال المتباينة. ولم يبدأ المصطلح بعد يمثل توصيفا دقيقا وناجعا لصنوف المشكلات التى تواجهنا فى التعامل مع العالم الإسلامى. وحتى فى التحليلات المتسمة بدرجات عالية من التبسيط، نواجه أحيانا بأصوات تذهب إلى أن المشكلة لا تكمن فى "الإسلام الراديكالى"، وإنما تجد جذورها فى "الإسلام" بحد ذاته ... وتطفو على السطح أسئلة على شاكلة : لماذا "هم" يبغضوننا؟ لماذا "هم" يتسمون بالعنف والوحشية؟ لماذا "هم" يكرهون

الديمقراطية؟ لماذا "هم" يرفضون القيم الأمريكية؟ لماذا "هم" ينخرطون فى العمليات الإرهابية وحروب العصابات؟ لماذا "هم" يعارضون السياسات الأمريكية؟ لماذا "هم" يرفضون التصورات والخطط الأمريكية "الصائبة" لمستقبلهم؟ ... هنا يتم طرح "الإسلام" كإجابة جاهزة عن تلك الأسئلة.

وحقيقة الأمر، لا يوجد ما يمكن نعته "بالعالم الإسلامى" ككتلة متجانسة، بل توجد عوالم إسلامية شتى، أو بلدان إسلامية عديدة وصنوف متباينة من المسلمين. بيد أنه من الأهمية بمكان أن نذكر أنه خلال الهجمات العدائية للغرب وفرضه للحصار على العالم الإسلامى، أكان ذلك حقيقة أو مجازا، فإن بلدان العالم الإسلامى قد شرعت بالفعل بالاتحاد والتقارب على نحو غير مسبوق على امتداد العقود المنصرمة. وفى الواقع، فقد أدت السياسات المتبعة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، أكثر من غيرها من العوامل، إلى إعادة إحياء وبعث مفهوم "الأمة" ذات الفكر الموحد ... ذلك المفهوم الذى لم يسد قط إلا فى أثناء فترة حياة النبى محمد.

فالتاريخ لم يبدأ فى الحادى عشرمن أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ . إذ يعود تعاطينا مع الشرق الأوسط إلى أبعد من ذلك بكثير. وفى حين كان الاعتداء الذى جرت أحداثه ووقائعه فى ذلك اليوم اعتداء وحشيا وحدثا غاية فى التطرف، إلا أنه كان ثمرة، أو بالأحرى بلوغ الغاية لأرتال من الأحداث امتدت لسنوات طوال سبقته. فإذا ما أردنا أن نرجع بداية التاريخ إلى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، والذى أمسينا بمقتضاه فجأة الفصيل الأوحد الذى يحق له التظلم، وصرنا كذلك مخولين بموجبه أن ننشر العدل فى ربوع الأرض، ... فحينها سنستمر فى اقتراف ما ألفنا فيما مضى، وما ينجم عن ذلك من عواقب وخيمة وكارثية بادية للجميع.

وبطبيعة الحال، يكون من الحماقة -نوعا- الحديث عن "عالم بلا إسلام". إذ لا يمكننا إعادة كتابة التاريخ، كما لا يمكننا الحدس بما قد يكون عساه كائنا ما إذا لم تقع وقائع تاريخية بعينها. وبعبارة أخرى، فحالما يشرع المرء فى دخول معترك

الجدل النظرى المتمحور حول السؤال: "ماذا لو؟!"، فلا سبيل حينها إلى تجنب المد الجارف من سيل التوقعات والتكهنات اللانهائية. فالمشاهد، أنه قد سودت كتب عديدة شائقة تناولت، على وجه التحديد، تلك التكهنات الخاصة بـ "ماذا لو؟!" : ماذا لو لم تحدث وقائع الحادى عشر من أيلول/سبتمبر؟! ماذا لو لم يتم اغتيال الأرشدوق فرديناند فى سارايفو فى عام ١٩١٤؟! ماذا لو لم يتم إعادة لينين إلى روسيا بواسطة الألمان فى عربة قطار مغلقة عشية اندلاع الثورة البلشفية، وماذا لو لم تقم تلك الثورة بالأساس؟! وماذا لو انتصرت الولايات الإحدى عشرة المنفصلة عن الولايات المتحدة الأمريكية، فى الحرب الأهلية؟! ... هل كان للعالم أن يضحى مغايرا تماما لما هو عليه اليوم، أم أنه كان سيخلص مما سبق بلا أدنى تغيير عبر الأجل الطويل؟!

تستعصى الأسئلة المطروحة آنفا –وتلك التى على شاكلتها– على الإجابة، بيد أن الغرض من وراء ذلك التطبيق يكمن فى توظيف الخيال والقدرة على الإبداع لإسقاط الضوء على التاريخ وفق منظور مغاير، ومن وجهة نظر وزاوية مختلفة، وذلك لإتاحة الفرصة لملامح وعوامل جديدة للانبثاق أمام ناظرينا، تلك التى لم يتم الالتفات إليها سابقا ... فقد لا تتجاوز احتمالية أن يقع حدث بذاته وفق الطريقة التى جرت بها وقائعه نسبة الـ ٥١٪، وهو الأمر الذى يقضى بأن النسبة المكملة (٤٩٪) ترتبط بحدث أو أحداث أخرى لم يقدر لها أن تتصدر المشهد أو يتم تركيز الضوء عليها. وهذا لا ينفى وجودها فى حينه، كما لا ينفى احتمالية استمرار بقائها تحت السطح حتى الآن بما لها من تأثير ملموس، إن لم يكن حاسما، على ما قد عساه يبزغ من أحداث فى المستقبل. ويحضرنى فى هذا الصدد مهامى كنائب رئيس مجلس الاستخبارات القومية بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية فى ثمانينيات القرن العشرين، حيث كنت مسئولا عن التوقعات الاستراتيجية فى الأجل الطويل، وعادة ما كنا نلجأ إلى توظيف إحدى التطبيقات التى تستدعى إعمال العقل وشحذ الفكر ضمن العديد من تلك التطبيقات التى عادة ما تنير

البصيرة على المستوى التحليلى : إذ كان يتم افتراض حدوث أمر مستقبلى هام، رغما عن تشككنا فى مدى إمكانية حدوثه، ليتبع ذلك وضع سيناريو مفصل يوضح كيفية الحدوث. هب أن المملكة العربية السعودية قد شهدت اندلاع ثورة إسلامية راديكالية –كيف كان لتلك الثورة أن تحدث ضمن إطار عدة سيناريوهات بعينها؟ وهب أن الحزب الشيوعى الصينى قد انهار– كيف كان لهذا الانهيار أن يقع، وما الذى كان يمكن أن يكون عليه مسار تلك الواقعة يوما بيوم؟! وما القوى الخفية، التى يهمل الالتفات إليها وتتبع مسيرتها، والتى قد تشق طريقها إلى صدارة المشهد؟! يكمن الغرض من وراء تلك التطبيقات فى إضفاء ما عساه يمنح تلك السلاسل من الأحداث شكلا ومضمونا، إذ يسود الاعتقاد بأنها غير محتملة (مستبعدة الحدوث) كما لا يتم الالتفات إليها بالتفكير بشأنها، كذلك يعمل ما سبق على شحذ "قرون الاستشعار" التحليلية لترصد شواهد ودلائل وقوع أمثال تلك الأحداث التى قد تؤدى إلى إمكانية حدوث ما لم يتم توقعه. ويمثل ذلك تطبيقات فى الإبداع والتخيل السياسى والاجتماعى، وتكون تلك التطبيقات واحدة من الأساليب العديدة التى يتم انتهاجها.

وفى الإطار ذاته، يتناول الكتاب الأحداث الهامة فى تاريخ الشرق الأوسط ويسعى لتحديد القوى التى شاركت فى صنعه ولم يكن لها علاقة مباشرة أو قريبة بالإسلام، وكذا إبراز الأحداث التى كان يمكن أن تجرى وقائعها –فى غياب الإسلام– كأقرب ما يكون مما قد حدث بالفعل. ويلقى الكتاب الضوء على الأحداث من زاوية مغايرة تماما، مبرزا ملامح قد تكون أغفلت من قبل أو لم يكن قد تم الالتفات إليها. وحتى إن لم توافق كاتب السطور الرأى حول بعض الافتراضات أو التفسيرات المقدمة، فلن تنظر، فى الغالب، إلى أحداث العالم الإسلامى ووقائعه وفق المنظور ذاته المتبنى من قبل، إذ ستصبح العوامل الأخرى فجأة أكثر عمقا وأبعد غورا داعية إيانا لإدراجها ضمن تحليلاتنا الخاصة برؤية جديدة.

وحتما سيقدم العديد من القراء مسالك وآفاقا بديلة عن تلك التى قمت

باختيارها – وهو أمر جيد، إذ أدرك أننى أيضا قد قمت باختيار بدائل فى تحليلى هذا. وصدقا، فقد كان بوسعى أن أسوق بعض الحجج لما أوردته من مناقشات بالكتاب، ولم يكن ذلك هو الهدف أو المحك، بل كان المراد إعادة التفكير فى الافتراضات السطحية شديدة التبسيط بأن الإسلام هو جوهر كينونة الشرق الأوسط – باعتباره مصدر المشكلة وحلها فى الوقت ذاته. كما كان الهدف توجيه الاهتمام وإيلاء العناية بأنماط أعمق وأكثر دقة من المشكلات والقضايا الراهنة التى تجعل الشرق الأوسط ما هو عليه بالفعل فى مواجهة الغرب.

وتبقى لمحة أردت أن أجعلها جلية : إذ لا ينصرف الغرض من كتابة سطور الكتاب –ألبتة– إلى تجاهل دور الإسلام أو التهوين من شأنه، فالإسلام كان له كبير أثر فى العالم بأسره باعتباره أحد أعظم الحضارات وأقواها فى التاريخ وأمضاها أثرا. فلم توجد حضارة قط سادت وطبقت الآفاق كما قدر للإسلام أن يذيع. وإننى أحمل فى نفسى أسمى المعانى وأجل التقدير لحضارة الإسلام، وفنونه، وعلومه، وفلسفته، وثقافته، وكذلك الحال تجاه المسلمين كإخوة فى البشرية ... فبدون الإسلام وحضارته لكاد العالم يكون موضعا مقفرا جدبا.

كذلك، فلا يسعنى إلا الاعتراف بما للإسلام من فضل فى خلق صرح متين الأركان هو "العالم الإسلامى" الذى ينتظم بين جنباته وينضوى تحت ألويته أعداد غفيرة من البشر بشتى اختلافاتهم، وكذا العديد من البلدان، والثقافات، والمناخات، لم يكن لها لتأتلف فى غياب الإسلام، وهو أمر بالغ الأهمية فيما يتعلق بشعوب ذلك الإقليم. بيد أن محور اهتمام الكتاب –تحديدا– هو السؤال عما كان يمكن أن تكون عليه حال العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط إن لم تلح راية الإسلام فى الأفق. ولا يعنينى فى هذا المقام دراسة أوجه الاختلاف التى كان يمكن أن تسم "العالم الإسلامى" إن لم يكن ثمة إسلام، كما لا أناقش هنا ما الذى كان سيخسره الغرب فى غياب الحضارة الإسلامية، بل يكمن الهدف فى تتبع المسار المتجدد للعلاقات بين الشرق والغرب. وبالنظر إلى مدى ما آلت إليه تلك العلاقات والتى تدهورت

للغاية، فالرأى عندى أن الإسلام لم يكن قط العامل الرئيسى، بل ولم يكن العامل الثانوى، المسبب لتلك الظاهرة. فإذا ما أردنا التعرف إلى العامل أو العوامل المسببة صار لزاما علينا توجيه البحث عبر أقنية بديلة. وحالما ولينا وجوهنا تلقاء اتجاه مغاير، راعنا العدد الضخم والتنوع الشاسع للقوى البديلة المؤثرة بالفعل فى علاقات الشرق والغرب.

كذلك، أود أن أؤكد على بعض النقاط الإضافية فى هذا الصدد. أولا، توجد لدى الغرب نزعة لاعتبار الإسلام غريبا أو دخيلا أو بعيدا عن الرؤى والتوجهات الغربية. وهنا، فإننى أسعى لأن أنزل الإسلام منزلته فى سياق الشرائع الأخرى، وبخاصة اليهودية والنصرانية. ولدرجة مذهلة للغاية، ينبع الإسلام من تقاليد عريقة وضاربة بجذورها للفكر الدينى للشرق الأوسط، بما فى هذا الفكر من هرطقات متعددة. ويأتى الإسلام كجزء حيوى ولبنة تكاملية فى إطار البنيان الديني الشامل، إذ يجد مكانه المناسب، بيسر وتلقائية، ضمن قوى عديدة سبقت ظهوره.

وترتبط النقطة الثانية بالعلاقة ما بين الدين والسلطة والدولة، إذ أرى أن الارتباط الوثيق بين الدين والدولة على امتداد تاريخ الغرب فى أغلب مراحله كان له من التأثير فى النصرانية والتاريخ المسيحى ما يفوق تأثيره فى الإسلام والعالم الإسلامى. وتصبح قضية "الهرطقة" على قدر بالغ من الأهمية فى هذا الصدد، إذ أنظر إلى "الهرطقة" -الآراء الدينية غير المقبولة من السلطات- بما تمثله، على وجه العموم، كمحرك وقاطرة للمعارضة السياسية للدولة على المستوى الجمعى. لذا، فحين نقوم بدراسة قضايا الخلاف الدينى، إلى أى مدى يمكننا أن نعتبر أنفسنا نتحدث، فى الحقيقة، عن العلاقات وموازين القوى؟

كذلك، فإننى أسعى إلى أن أوضح كيف سلك الإسلام فى نشأته دروبا تتطابق -أو تكاد- وتلك التى سلكتها النصرانية، وإن لم يكن فى المناحى كلها. وتشير الملاحظة السابقة إلى أن معظم الأديان تسلك مسارات بعينها حين يرتبط الأمر

بإثبات أصالة النصوص المقدسة، والحفاظ على الاستقامة المعتقدية، والتعامل مع محاولات تحريف العقيدة وتشويهها، وما شابه ذلك. فلا يختلف الإسلام هنا كثيرا، بل يجيء متسقا مع المسار العام للتطور الديني، ويشير ذلك، بدوره، إلى أن الدين، بحد ذاته، لا يخلق التمايزات والاختلافات بقدر ما يخلقها توظيف الدولة له، كما يشير إلى أن التجمعات الدينية المتمايزة ترتكز دعائمها، في الجانب الأكبر منها، على التنافس الدنيوي/العلماني، وفي أقل القليل على الاعتبارات الدينية.

ويولي الكتاب عناية فائقة للاحتقانات والمواجهات ما بين المسيحية الأرثوذكسية الشرقية والمسيحية الرومانية الكاثوليكية/الغربية. فلو لم يزح الإسلام الحكم المسيحي على امتداد أغلب ربوع الشرق الأوسط، لكان الأرجح أن يظل الإقليم برمته تحت هيمنة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. ولقد تراوحت العلاقة فيما بين الأرثوذكسية والكاثوليكية بين التشكك المتبادل فيما بينهما إلى العداء السافر على امتداد ما يقارب ألفي عام، رغما عن الكثير من التقاليد الأصيلة المشتركة فيما بينهما. لذا، يوجد ما يبرر بقوة وجلاء الزعم بأن المسيحية الأرثوذكسية كان يمكن أن تكون اليوم نقطة الانطلاق الدينية والأيديولوجية لاستجلاء مظالم الشرق الأوسط وبلورتها تجاه الغرب – يمكن للمرء أن يعاين التطور التاريخي للأرثوذكسية الشرقية في مركز ثقلها الراهن، موسكو.

ويمضي المشهد ليفضي إلى دراسة الحروب الصليبية وتحليلها : هل كانت حدثا دينيا أم ظاهرة جيوبوليتيكية؟ وبينما تشيع النظرة إلى تلك الحروب باعتبارها صراعا ما بين النصرانية والإسلام، إلا أنها كانت، في حقيقة الأمر، صراعا سياسيا ثلاثي الأطراف انتظم المسيحية الشرقية، والمسيحية الغربية، والإسلام.

ولقد خصصت فصلا من الكتاب لتناول حركة الإصلاح المسيحي التي تكشف عن نظائر مدهشة فيما بين منطق الأحداث وطبيعتها في أوروبا المسيحية وبين بزوغ "الأصولية الإسلامية" لاحقا، والتي نشأت وفق ملابسات متباينة. وفي كلتا

الحالتين، يبدو جليا كيف طغى الأثر السياسى وهيمن على القضايا الدينية. وهنا أيضا، فقد مثل الدين محركا لإعطاء الزخم وقوة الدفع المطلوبة. ونلحظ فى هذا الصدد، كيف أدى فقدان الدولة أو الكنيسة للهيمنة على الاعتبارات الدينية إلى نشأة موجات متعاظمة من الراديكالية فى كل من المسيحية والإسلام.

كذلك نعاين بعض الأشباه والنظائر المذهلة فى القضايا الخلافية بين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة، وبين النصرانية والإسلام من جهة أخرى. وتتضمن تلك القضايا، المظالم التاريخية، ووجهات النظر المتباينة حول دور الكنيسة والدين فى المجتمع، وطمس القيم الخاصة والعامة وتشويهها، والعلاقة فيما بين الدولة من جهة، والكنيسة/المسجد من جهة أخرى، والجدل الدائر حول طبيعة "العلمانية" وإدراجها ضمن فعاليات العالم المعاصر. وتعلو صراعات القوى، وكذا الأحقاد والضغائن، فوق الاعتبارات والقضايا الدينية وتهمشها ... تلك الاعتبارات التى غالبا ما تبدو فى حد ذاتها -وبالمقارنة- غير ذات بال.

ثم يلج الكتاب ليختبر ما ذهب إليه العالم السياسى "صموئيل هانتنجتون" فى إشارته إلى "الحدود الدموية للإسلام"، والتى ساقها فى مقالته وكتابه ذائعى الصيت "صراع الحضارات". فعن أى شئ نتحدث بالفعل هنا؟ أتناول بالبحث والدراسة عناصر العلاقات الباهرة فيما بين الإسلام من جهة وأربع من الحضارات العظمى، والتى كان الإسلام وثيق الصلة بها عبر أجال ممتدة، وهى : أوروبا الغربية، وروسيا الأورثوذكسية، والهند الهندوسية، والصين الكونفوشيوسية. وفى كل من تلك العلاقات على حدة، توصل الإسلام والحضارة المعنية إلى أوضاع توافقية ذات طبيعة متشعبة ومتجددة، كذلك فقد تم التلاقح فيما بين تلك الحضارات. وتبرز تلك الحضارات صورة أكثر دقة عن الكيفية التى أدار بها المسلمون بالفعل تعاملاتهم مع الحضارات والأديان الأخرى ... بأكثر مما يتم تصويره فى سيناريوهات المواجهة شديدة التبسيط ذات الطابع المخاتل.

وقد يخلص بعض قارئى الكتاب إلى حقيقة كونه يسلط الضوء على نحو أكبر على مظالم المسلمين ومعاناتهم من ممارسات الغرب أكثر من إشارته إلى المظالم والمعاناة التى قد تكون لدى الآخرين بفعل ممارسات الإسلام بحقهم، وتلك هى الحال بالفعل. ففى البدء، فإن معاناة المسلمين ومظالمهم وتصوراتهم بشأن الغرب تكاد تكون مجهولة فى الغرب ذاته. ولقد كان بإمكانى أن أسود من الصفحات ما أبسطه لتناول الاعتداءات التى مارسها المسلمون بحق النصارى والهندوس واليهود فى حقبة أو أخرى من التاريخ، على أن آلافاً آخرين قد أدلوا بدلوهم بالفعل فى هذا المضمار. وكما أن كلاً لديه ما يسرده من روايات تمزق نياط القلب، عما ارتكب المسلمون بحقه، فعلى الجانب الآخر، يوجد لدى المسلمين أحاديث وروايات مفزعة عما ارتكب بحقهم لا تقل فى جسامتها ووطأة وقعها عما يرويه الآخرون. ولايرمى الكتاب إلى محاولة عقد مقارنات أو موازنات بين ما أريق من دماء كلا الطرفين، كما لا يهدف إلى تقديم كشف حساب فى هذا الصدد، بل يهدف إلى محاولة طرح تلك الأحداث ومناقشتها، خاصة على هدى من "خطوط التماس" الحضارية، حيث يتماس الإسلام مع غيره من الحضارات العظمى. وللمرة الثانية، نجد الدور الممارس من قبل "الإسلام" عادة ما يكون أقل أهمية وأدنى أثرا من المواجهات الإثنية، التى قد يتم تضخيمها وتأجيجها عبر التباينات العقائدية لكلا الطرفين.

ويتناول الجزء الأخير من الكتاب بعضا من الطموحات والتطلعات الراهنة للعالم الإسلامى، بدءا من إلقاء نظرة على تاريخ صراع المسلمين ونضالهم ضد النفوذ الكولونيالى. ونلحظ، فى هذا الخصوص، أن تطور كفاح الشرق الأوسط ضد الإمبريالية الغربية يعد أمرا حديثا نسبيا، كما نلحظ كيف أن التفكير المناهض للإمبريالية يظل سمة غالبة لمنهج الشرق الأوسط ورؤيته لعالم اليوم. ولقد تراءت لى بعض أوجه التطابق بين العديد من حضارات اليوم -بما فيها الصين- بخصوص التجربة المناهضة للإمبريالية والخطاب المصاحب لها، لأخلص إلى تقرير التشابه الجلى المشترك بين أفكار المسلمين والحضارات الآسيوية فيما يخص التدخل

الإمبريالى للغرب فى شئون الآخرين.

كذلك، فقد قمت باستجلاء أكثر الموضوعات المعاصرة إلحاحا – الجهاد، المقاومة، الحرب، الإرهاب. تلكم هى القضايا التى تسيطر على الفكر الإعلامى وتشغل باله، وتواجه القاعدة الشعبية العريضة على نحو دورى وحيوى، إذ تعد مصدرا للاهتمام المشروع الكثيف والمتنامى، فضلا عن كونها مادة للمتاجرة بالمخاوف، وتهويل الأمور وتضخيمها، وكذا إيراد البيانات المغلوطة. إذا، هل يعد ما سبق – بالأساس – قضايا دينية أم جيوبوليتيكية؟ وأخيرا، أرجع فى الفصل الختامى لبعض السياسات المحددة محل الاهتمام والعناية حيث أقدم نقاطا صريحة موجزة عن ضرورة تغيير السياسات والرؤى تغييرا جذريا إذا ما أردنا أن نخرج من شراك ذلك المستنقع الآسن الذى كان وبالا على الجميع.

وبصورة أو بأخرى، فإن الكتاب معنى بالحضارات الأخرى المتاخمة للإسلام (حضارات الجوار) – الحضارة البيزنطية، روسيا، المسيحية الغربية، الهند، الصين، – بقدر ما هو معنى بالإسلام ذاته. ويرتكز تحليلى فى هذا الخصوص على الكيفية التى اتسق فيها الإسلام بيسر وسلاسة، وبطرق شتى، مع الطموحات الثقافية والافتراضات الحضارية والتوجه العالمى لتلك الحضارات العظمى. ولا ريب فى وجود شكوك ومخاوف أشبه ما تكون بكونها شاملة وعامة من قبل المجتمعات الإسلامية إزاء العالم الغربى اليوم، وتشاركها فى ذلك، وعلى نطاق واسع، كثير من الحضارات الأخرى لدول العالم النامى، وإن لم يكن بينها اتفاق دائم حول التفاصيل البينية. وبعبارة أخرى، فإن العديد من القيم والرؤى السياسية التى تعزى إلى العالم الإسلامى اليوم، والتى تؤرق الغرب، توجد كذلك فى "عالم بلا إسلام".

والكتاب ذو صبغة نقاشية جدالية، وليس سردا لأحداث بذاتها. وقد سعيت من خلاله لإلقاء الضوء على اتجاهات وقوى بعينها غالبا ما يتم تجاهلها أو طمسها فى

الكتابات التاريخية الأكثر تقليدية. ومن خلال قاطرة الجدال الافتراضى، يحدونى الأمل فى أن أكون قد قدمت طرحا جديدا ونهجا مغايرا بشأن الكيفية التى جرت بموجبها الأحداث وتطورت فى إقليم الشرق الأوسط، وكذا بشأن الأسباب التى أدت إلى ذلك، فيما يتجاوز تأثير العوامل المرتبطة بالإسلام ذاته. وفى الختام، أرجو أن يقوم القارئ بالتفكير فى "الإسلام" والنظر إليه باعتباره مكونا متشعبا وأساسيا من مكونات الخبرة الإنسانية والسياسية والدينية التى تنتظم البشرية. فإذا ما كانت ثمة "مشكلة" لدينا حول الإسلام، تكون المشكلة نابعة منا وتمسنا كذلك.

ولقد تكررت إحالاتى وإشاراتى إلى "الإسلام" بين دفتى الكتاب، بما فيها هذا التقديم، بيد أنه، وبلا أدنى شك، لا يوجد "إسلام" واحد، بل أكثر من "إسلام"، أو بعبارة أخرى، يوجد "إسلام"واحد، وطرائق عديدة يفهم بمقتضاها المسلمون "الإسلام" ويحيون تعاليمه ... وتتباين تلك الطرائق على نحو كبير بين بلد وآخر، وفئة عمرية وأخرى، وقضية وأخرى، وشخص وآخر. وحقيقة الأمر، فإن الإسلام هو التصور الذى يتبناه المسلمون بشأنه، فضلا عما يرغبون فيه من إطار ينتظمه. وكغيرهم من معتقدى الملل الأخرى، يختلف المسلمون فى تصوراتهم ورؤاهم فيما يخص "الإسلام".

فإذا ما قام المرء بإلصاق صفة "العمومية" بتلك الظاهرة الهائلة والديناميكية ... الإسلام ... فكأنما يقوم بتحنيطها كما يقوم أحدهم بوضع فراشة ما فى صندوق لحفظ الفراشات بغرض الرجوع إليها ودراستها كعينة على امتداد الزمن. وبالفعل، فهناك الآلاف من الفراشات هنا وهناك، ولا ينى الفراش، كنوع، أن يتكاثر وتظهر منه صنوف أخرى جديدة فى الوقت ذاته الذى نحاول خلاله أن نحصر شتاته. ويا لها من مفارقة، فإن أكثر المهووسين والمتشددين فى الإسلام، من جهة، وأعداهم الغربيين الأكثر تعصبا، من جهة أخرى، هم من يسعى لقولبة الإسلام وتجسيده على هيئة ظاهرة جامدة متيبسة أحادية الملمح، فينبغى لنا إما أن نروج لتلك الظاهرة أو نعمل على طمس ملامحها وتشويهها.

وختاماً، أرجو أن يصل القارئ إلى الإيمان بأن الأزمة الراهنة فى العلاقات ما بين الشرق والغرب، أو ما بين "الغرب" و"الإسلام" لا يربطها بالدين إلا رابط يسير غير ذى بال، فى حين تجد جذورها وينبع زخمها من الصدام السياسى والثقافى، وكذا تعارض المصالح والتشاحن والتنافس المحموم. ولا يخفى ما لهذه النتيجة من أهمية بالغة، إذ إنها وثيقة الصلة بالنهج الذى سنعتمده لمجابهة أزمة التصادم الراهنة بين الغرب والإسلام. فهل نحن، بالفعل، ماضون باتجاه موجات خطيرة من الصدام الحضارى المحموم، باتجاه حرب "مائة عام" جديدة أو حرب كونية رابعة، كما توقع البعض؟ فهذا الطرح الصارخ من الصراع الوجودى يروق بالفعل لجماعة صغيرة من المسلمين والنصارى واليهود. على أننا إذا خلصنا إلى أن الدين ليس العامل الحاسم والأساسى فى المشاحنات الحالية، تكون الفرصة مهيأة لبحث تلك المشاكل، بل والتوصل إلى حلول ناجعة لها أيا ما كانت درجة تشابكها وحدة وطأتها. وباعتماد ذلك المنهج، نأمل أن نكون ماضين باتجاه إرساء قاعدة متينة الأركان للعقائد "الإبراهيمية" الثلاث : اليهودية والنصرانية والإسلام، والتى تأتلف بأكثر مما تختلف وتتحاور بأكثر مما تتنافر.

والمؤسف أن الدين إذا ما تم ربطه بالاعتبارات السياسية، فإنه ينزع إلى أن يفقد جوهره وتطمس روحه – وتغيب ملامحه الروحانية. ففى غير موضع من أرجاء المعمورة، يتم الزج بالدين، وعلى نحو منتظم، فى العديد من الصراعات الدموية التى تتمحور حول النزاع على امتلاك السيادة، والنزاعات الحدودية، وإحكام القبضة السياسية، وإملاء إرادة سياسية بعينها، والحفاظ على هوية المجتمع. وينسحب ما سبق على الكثير من العقائد، كالنصرانية والإسلام واليهودية والبوذية والهندوسية والشنتو، ... وكثير غيرها.

وفى الغرب، فإننا نحيا فى زمن ينحو فيه التفكير العقلانى العلمانى، وبقوة، إلى نبذ ظاهرة "الدين" باعتباره عنصرا مهجورا تجاوزته الأيام ... ذلك العنصر الذى يعطل ويعيق النسق والتراتب الاجتماعى فى أحسن الأحوال، ويعد مصدرا

للكراهية والشنآن والحروب والصراعات العنيفة فى أسوئها. وقد أفزعت "الصحوة الدينية" العديد من الغربيين حين بدا الدين أكثر مضاء وأشد خطرا على نحو لم يعهد من قبل، وهو أمر له نصيب من الحقيقة، وإن كان جوهر القضية ليس ما يمثله الدين من خطر فى حد ذاته، وإنما "التفكير الدوغماطيقى". فالأهوال والمآسى التى شهدها القرن العشرون لا ترتبط أو تجد جذورها فى أى ملمح دينى أو أى عامل عقائدى : حربان كونيتان، فرانكو، موسوليني، هتلر، لينين، ستالين، ماو تسى تونج، بول بوت، رواندا – مصرع مئات الملايين من البشر ... ارتبط ذلك كله بأنظمة علمانية بل وملحدة اعتنقت أفكارا دوغماطيقية قامت بتنفيذها بصرامة ووحشية دونما أدنى اعتبار لفداحة العاقبة.

وأخيرا، فأنا لم أكتب عن الدين، مطلقا، باعتباره كيانا ينتظم إيمان المرء، وإنما تناولت "الدين" باعتباره قاطرة للعديد من أوجه الطموح البشرى كالسياسة فضلا عن أمور أخرى لعل أبرزها المخاوف والدوافع والتحيزات والتطلعات. ولا أزعم –ألبتة– أن الدين تضيق آفاقه لتمسى ماهيته محصورة فى تلك الأمور فحسب. بيد أننا حين نطالع آلام القرن الحادى والعشرين وعذاباته تتبدى تباعاً، يصير حتما علينا أن نتحلى بقدر من الواقعية بشأن جسامة مسئولية تبعات القضايا وثقلها والتى يتعين أن ينهض بها الدين، فيكاد جل ما نخاله "قضايا دينية" ألا تربطه أدنى صلة بما تعارفنا على نعته بـ"الدين"، والذى طالما تم الزج به فى قضايا عديدة. وينسحب ما سبق أمريكيا قدر انسحابه على القاهرة أو تل أبيب أو بومباى أو كولومبو. فـ"الدين" يتم التحدث عنه بشتى الألسن ويتم توظيفه ليحظى بقبول مشارب عديدة، الصالح منها والطالح. إذا، وانطلاقا من ذلك كله، دعونا نجيل الفكر ونوجه الأبصار صوب "عالم بلا إسلام". ودعونا نسأل عن أوجه اختلافه فيما يخص علاقاتنا بالشرق الأوسط، وعن العوامل الأخرى المؤثرة فى ذلك السياق.